Journal of Arabic Language Specialized Research Vol. 1، No. 1، January 2015, 93-116



مجلة اللغة العربية للأبحاث التخصصية
العدد 1، المجلد 1، كانون الثاني 2015م.
e-ISSN: 2289-8468
الاستلام: 2014/11/2 القبول: 2014/12/1 النشر: 2015/1/15

FROM THE RHETORIC OF VERBAL FORMATION IN THE QUR'ANIC DISCOURSE, AN ANALYTICAL STUDY

من بلاغة التشكيل اللفظي في الخطاب القرآني
دراسة تحليلية

شومة محمد مساعد الفاضلي البلوي
جامعة تبوك
الأردن
dr.shomah@hotmail.com



ملخص

فإن القرآن الكريم كتاب الله المعجز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كيف لا؟ وهو الكتاب المعجز الذي عجز العرب على فصاحة ألسنتهم، وبلاغة منطقهم أن يأتوا ولو بآية من مثله – ولن يأتوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً – والسبب في ذلك الإعجاز بلاغة نظمه، وسلاسة ألفاظه، وإحكام أساليبه، واتساق إيجازه وإطنابه، وما فيه من حجة وبرهان، حتى قال قائلهم: (والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، ومغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته)([1]. وحق للوليد بن المغيرة أن يقول ذلك، فهو أمام كتاب الله المعجز، منهل عذب، ومعين زاخر صافٍ، (فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه)، فلا (تزيد تلاوته إلا حلاوة ولا ترديده إلا محبة، ولا يزال غضاً طرياً، وغيره من الكلام – ولو بلغ في الحسن والبلاغة مَبْلَغهُ – يُمَلّ مع الترديد ويعادي إذا أعيد؛ لأن (إعادة الحديث على القلب أثقل من الحديد) كما قال السيوطي رحمه الله([1].ولعل أقوى دلائل الإعجاز في القرآن الكريم هو ذلك التأثير الذي يبعثه في النفوس، فإنه لا يكاد يطرق السمع حتى يخلص إلى القلب، وتجد منه النفس لذة وحلاوة.

Abstract

For a single Quranic great importance in building expressive and a great role in the elucidation of the attributes miracle Quranic and how signed pronunciation locations of Rhetoric miracles ، and miracles of rhetoric ، and the extent to which use the Koran vocabulary commonly used optimally is a faction among the style Quranic miraculous ، and the words of human beings in the most prestigious models and photographs. In a research that tracked the vocabulary Quranic contained in the book of God for the first time - the format and substance - and I found them and God knows - approximately (357 words) (1) did not respond only once ' confined my studies on some of them، which is a clear indication that " the Koran spruce in choosing his words and every word put in place Kalbannh in construction، does not fit the other place، though the convergence on and tie them in length and width ، because each word is particularly significant and intimation special ، and tune in to install، and can not be mastered with other connotations ، and balances the significance and the other ، and puts call the mouthpiece of the situation believe the expression and pictured longing souls and Khtarat consciences but Aleem expert who knows the treacherous eyes and what the breasts conceal " no wonder that every single Koranic her Jursha and rhythm voice its own ، which has the biggest impact on the significance of the context on P " may take a term one in a format expressive paints a picture fastened increases their value that is solely rude that draws the image Bjursh befitting in the ears and sometimes it casts a shadow on the imagination at times، and his shadow or Bjursh together" . Hence the research entitled " formation of verbal eloquence in the Qur'anic discourse (analytical study " where he will discuss some of the research contained Quranic vocabulary for the first time in the Book of Allah - the Almighty - and did not recur in another context would be through the study of:

- The study of the individual in terms of its morphological ، and implications bell sound and rhythm.
- Then the effect of this in the context of the Quranic text shadows and Aijae.

it is going to touch the significance of language elements : ،The importance of this study and the benefits ،acoustic and morphological of Quranic discourse ; to show Fraúd buildings of the meanings inherent in this book Almgr download which came the bulk of its elements has some of the bell and the rhythm of the shadows and ، however، take some ،sister Mtaangh it suggest the accuracy of the The brevity and splendor statement miraculous

المقدمة

إن للمفردة القرآنية أهمية كبرى في البناء التعبيري، ودورًا عظيمًا في استجلاء سمات الإعجاز القرآني، فقد وقع اللفظ موقعاً من بلاغة الإعجاز وإعجاز البلاغة، واستعمل القرآن مفرداته استعمالاً أمثل، فهو الفيصل بين الأسلوب القرآني المعجز وبين كلام البشر في أرقى نماذجه وصوره. وفي بحثي تتبعت المفردات القرآنية الواردة في كتاب الله لأول مرة – صيغة ومادة– فوجدتها ما يقارب (357) كلمة(1)، لم ترد إلا مرة واحدة، فاقتصرت في دراستي على بعض منها، مما يدل دلالة واضحة على أن (القرآن الكريم يتأنَّق في اختيار ألفاظه وكل كلمة توضع في مكانها كاللبنة في البناء، لا يصلح غيرها موضعها، ولو تقارب المعنى وتساوى معها في الطول والعرض؛ لأن لكل كلمة دلالة خاصة، وإيحاء خاصاً، وانسجاماً في التركيب، ولا يستطيع أن يلم بسائر الدلالات، ويوازن بين دلالة وأخرى، ويضع الكلمة المعبرة عن الموقف أصدق تعبير، والمصورة لخلجات النفوس وخطرات الضمائر إلا العليم الخبير الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور)(2)، ولا عجب في ذلك، فكل مفردة قرآنية لها جرسها وإيقاعها الصوتي الخاص بها، الذي له أكبر الأثر في الدلالة على سياق المعنى، فقد "يستقل لفظ واحد في نسق تعبيري برسم صورة شاخصة يزيد من قيمتها أن لفظاً مفرداً هو الذي يرسم الصورة بجرسه الذي يلقيه في الآذان تارة، وبظله الذي يضفيه على الخيال تارة، أو بجرسه وبظله معاً"(3)، ومن هنا كان البحث بعنوان: **(من بلاغة التشكيل اللفظي في الخطاب القرآني – دراسة تحليلية)**، حيث سيتناول البحث بعضاً من المفردات القرآنية الواردة لأول مرة في كتاب الله –تعالى– ولم تتكرر في سياق آخر، وستكون الدراسة من خلال:–

- دراسة المفردة القرآنية من حيث بنيتها الصرفية، ودلالاتها الصوتية جرساً وإيقاعاً.
- ثم أثر ذلك في سياق النص القرآني ظلالاً و إيحاء.

إن أهمية هذه الدراسة أنها تتجه إلى تلمّس الدلالة في عناصر اللغة: الصوتية والصرفية في الخطاب القرآني؛ لإظهار فرائد المباني، وفوائد المعاني الكامنة في هذا الكتاب المعجز التنزيل الذي جاءت جل عناصره متآخية متعانقة فيه، يأخذ بعضها بيد بعض من الجرس والإيقاع إلى الظلال والإيحاء دقة وإيجازاً وروعة بيان معجز. وقديماً توصل ابن جني

(1) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم بحاشية المصحف الشريف، وضعه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 1411هـ – 1991م.

(2) فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، د. فتحي أحمد عامر: 134، منشأة المعارف، الإسكندرية 1991م.

(3) فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم: 133.

إلى وجود علاقة بين الأصوات والمعاني، حيث تناول هذا في كتابه (الخصائص) تحت عنوان: (مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها)، ثم قال تحته: (وهذا باب عظيم واسع؛ وذلك أنهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبرة عنها، فيعدلونها بها، ويحتذونها عليها وذلك أكثر مما نقدّره، وأضعاف ما نستشعره من ذلك قولهم: (خَضِم – وقضِم، فالخَضْم لأكل الرطب) والقَضم للصلب اليابس، فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها مع اليابس، حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث)[4].

فكلام ابن جني يدل على فكر نيّر، فهو يشير إلى أن العلاقة بين الأصوات والمعاني من الثراء اللغوي المميز، فاختيار المفردة واستعمالها في القرآن الكريم جاء نتيجة للتمحيص والانتقاء الفذ، ولذلك لا نخشى فيها تنافراً ولا شذوذاً، وإنما نجد جمال التناسب والتوافق فيها ساحراً بديعاً متناغماً مع أجواء النظم القرآني وسياقه، (ألفاظ القرآن الكريم تختلف ولا تراها إلا متفقة وتفترق ولا تراها إلا مجتمعة، وتذهب في طبقات البيان، وتنتقل في منازل البلاغة، وأنت لا تعرف منها إلا روحاً تداخلك بالطرب، وتشرب قلبك الروعة، وتنتزع من نفسك حسن الاختلاف الذي طالما تدبَّرت به سائر الكلام، وتصفَّحت به على البلغاء في ألوان خطابهم، وأساليب كلامهم، وطبقات نظامهم، مما يعلو ويسفل، أو يستمر وينتقض، أو يأتلف ويختلف... فأنت ما دامت في القرآن حتى تفرغ منه، لا ترى غير صورة واحدة من الكمال، وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التركيب وموضع التأليف، وألوان التصوير، وأغراض الكلام كأنها تفضي إليك جملة واحدة حتى تؤخذ بها)[5].

قبل الخوض في صلب الموضوع، لابد أن نمهِّد تمهيداً موجزاً؛ لإيضاح مفهوم محور العنوان، ألا وهو مفهوم (التشكيل) لغة واصطلاحاً.

([4]) الخصائص، صنعه: أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد على النجار، 2/157-158، ط2.

([5]) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: 233.

التشكيل لغة:

التشكيل لفظة مأخوذة (من الشكل) أي: المثل، يقال: امرأة ذات شِكْل، وشَكَلْتُ الدابة بشكاله، ودابة بها شكال إذا كان إحدى يديه وإحدى رجليه مُحَجَّلاً، وشَكَلْتُ الكتاب أشكُله شكلاً، إذا قيَّدته بعلامات الإعراب، وتشكَّل الشيء: تصوَّر)[6]. هذا بالنسبة للجانب اللغوي.

التشكيل اصطلاحًا:

(التشكيل) في المرجعية الاصطلاحية نجده فيما يقوله الدكتور محمد صابر عبيد: (فالتشكيل يتألف من شبكة عناصر ومكونات وأدوات تحتشد في سياق تكويني مؤتلف لبناء فضاء المصطلح)[2]، ومن هنا فإن التشكيل هو عبارة عن الهيكل البنائي للخطاب أو النص، فالتشكيل اللفظي مفهوم واسع لا يقتصر على النظرة للجوانب التركيبية في النص بل يتجاوز ذلك، للوقوف على الجوانب الصوتية والدلالية، والنحوية الصرفية، وتضام هذه المعطيات اللغوية، لتشكل بناء كاملاً يضفي بعلاقاته جملة من المعاني والإيحاءات، ليلبسها مفردات النص، يقول الدكتور سعيد بحيري: (إن الإفهام أو التواصل لا يتحقق إذن إلا بوقوع المخاطب على قصد المتكلم من خلال التشكيل اللغوي الذي يضم العناصر المنطوقة، والقرائن التي تضم عناصر منطوقة، وأخرى غير منطوقة)[3]، ومن يقف على بعض الإشارات عند الجرجاني يجده يتجه للنص بنظرة لغوية وبلاغية شاملة، فهو يشير (إلى أن الشعر لا يسند إلى الشاعر بكونه تكلم به ونطق كلماته، بل من جهة ما صنع من المعاني، وألبس المفردات حلة من تلك المعاني، وهذا ما يميز الشاعر عن الراوي)[4]، فألفاظ القرآن الكريم لها جمالها المتميز المتناغم، وتناسقها الكامل مع المعنى، وائتلافها مع دلالات المعنى المصاحبة، بحيث تؤثر في المعنى وتؤدي هدفاً كبيراً لا يمكن تحقيقه بدونها أو بغيرها. واللفظة القرآنية بشتى أشكالها وصيغها متماسكة مع أخواتها، متحدة في السياق ومتماشية مع الغرض والمعنى.

---

(6) لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين بن منظور: مج 11 156-157، بيروت، لبنان،1410هـ-1990م.ومجمل اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس: 509/2، تحقيق: زهير السلطان، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1406هـ- 1986م.

صور التشكيل اللفظي في القرآن الكريم

من صور التشكيل اللفظي في الخطاب القرآني ما جاء في قوله تعالى: **﴿وْكَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾**.(7)

وردت هذه الآية الكريمة في سياق إثبات قضية الحشر والبعث بعد الفناء، وإثبات قدرته –سبحانه– على كل شيء؛ فقد ذكر المفسرون أن رجلاً اسمه عزير مرّ على قرية بعد خرابها، فقال مستفهماً: كيف يعمر الله هذه القرية بعد هدمها، وزوال آثارها؟ والمراد استبعاد عمرانها بالبناء والسكان بعد أن خربت وتفرق أهلها ولكنه في الوقت نفسه يستعظم قدرة الله تعالى لما رأى شدة خرابها، فقوله –كما يقول الدكتور وهبة الزحيلي–: (اعتراف بالعجز عن معرفة طريقة الإحياء، واستعظام لقدرة المحيي، فجعله الله فاقد الحس والحركة مائة عام مع بقائه حيًّا، ثم أطلق فيه الحركة، وبعثه بسرعة وسهولة، كأنه كان نائماً ثم استيقظ، فوجد القرية قد عمرت بعد سبعين سنة من موته، وتكامل ساكنوها، ورجع إليها بنو إسرائيل، فقيل له بواسطة الملك: كم وقتاً لبثت؟ وسئل هذا السؤال؛ ليظهر عجزه عن الإحاطة بشؤون الله تعالى، فقال: لبثت يوماً أو بعض يوم على التقريب والظن والتخمين؛ لأنه مات أول النهار ثم بعثة الله في آخر النهار، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم، فقوله هذا على ما عنده وفي ظنه، فلا يكون كاذباً فيما أخبريه فأجيب: بل لبثت مائة عام، فانظر لتر دلائل قدرتنا إلى طعامك وشرابك طوال هذه المدة لم يتغير، ولم يفسد مع أن العادة جرت بفساد مثله بمضي مدة قليلة)(8). فنحن في هذه الآية أمام استفهامين:–

الأول: **{أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا}**؟ **والثاني: {كَمْ لَبِثْتَ}**؟

فالأول صادر من العبد، والثاني من المخاطب، والمخاطب فيه العبد الذي مر على قرية وهي هالكة، يقول الدكتور عبد العظيم المطعني –رحمه الله–: (والخلاصة أن الاستفهام هو فعلاً للاستبعاد المبني عن شك لدى المستفهم حمله

(7) سورة البقرة الآية: 259.

(8) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي: 3/33–34، دار الفكر المعاصر، بيرت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سورية، 1411هـ – 1991م.

على هذا الاستبعاد المشوب بالتعجب والحيرة. أما الاستفهام الثاني فهو فيما نرى للتجهيل، أعني تجهيل المخاطب وتبيين خطئه في تحديد المدة التي قضاها ميتاً[9]، فكان ذلك من الآيات الناطقة بطلاقة القدرة الإلهية.

إن المتأمل في سياق هذه الآية يسترعي انتباهه التعبير باللفظة القرآنية (لم يتسنه) الوحيدة صيغه ومادة. فلماذا لم يأت التعبير بقوله: (لم يتغير)؟ ما الذي تضيفه كلمة (لم يتسنه) من دلالات إيحائية للنص القرآني لا يمكن لأي لفظة أخرى أن تحل محلها. فـ(لم يتسنه) أي: لم يتغير، فهو من (أسن الماء يأسن وأسن يأسِنُ ويأسُنُ إذا تغيَّر)[10]، و(يأسِنُ أسْنا وأسونا وهو الذي لا يشرب أحد من نتنه، وأسِن الرجل إذا دخل البئر فأصابته ريح منتنة من ريح البئر أو غير ذلك، فغشي عليه أو دار رأسه)[11].

إذن: هذه المفردة القرآنية (لم يتسنه) إضافة إلى النفي الوارد في سياقها أوحت بظلالها، وأعطت مدلولاً دقيقاً لا يتحقق في كلمة (لم يتغير)، فالله -عز وجل- أراد أن يثبت بكمال قدرته أنه مع طول المدة التي مكثها -وهي المائة عام- لم يصب طعامه وشرابه أي تغيّر لا على مستوى الرائحة، ولا على مستوى الطعم، فالعدول عن كلمة (لم يتغيّر) إلى هذا التعبير القرآني -والله أعلم- استدعاه المقام في سياق هذا الخطاب الإلهي، فكلمة (لم يتغير) قد توحي إلى أن الطعام والشراب لم يتغيرا شكلاً إنما الطعم قد يحدث له خلاف ذلك مع طول المدة ولو في جزء من أجزائه، فهذه الكلمة لم تعط ما أعطته دلالة المفردة القرآنية.

يقول سيد قطب: (وهكذا يلقي التعبير القرآني بظلاله وإيحاءاته، فيرسم المشهد كأنما هو اللحظة شاخص تجاه الأبصار والمشاعر وتبعاً لطبيعة التجربة، وكونها تجربة حسية واقعية نتصور أنه لابد من وجود آثار محسوسة تصور فعل مائة عام...هذه الآثار المحسوسة كانت متمثلة في شخصه أو في حماره) [12]، وهذا من تمام رحمة الله -تعالى- به وعنايته ولطفه أن أراه الآية عياناً، ليقتنع بها[13]، فكانت النتيجة إقرار العبد الذي مرت به التجربة (فلما تبيَّن له قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير)[14].

---

(9) التفسير البلاغي في القرآن الحكيم، د عبد العظيم المطعني: : 144/1، مكتبة وهبة، القاهرة،1420هـ- 1999م.

(10) مجمل اللغة: 1/ 96.

(11) لسان العرب، مادة: أسن: 16/13.

(12) في ظلال القرآن، سيد قطب: 298/1-299، دار الشروق، بيروت، ط 15، 1408هـ-1988م.

(13) ينظر : فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني:354/1، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1416هـ -1996م.

(14) سورة البقرة، الآية: 259.

ومن الصور كذلك ما جاء في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا**﴾(15).

جاءت هذه الآية الكريمة في معرض وحي الله لموسى -عليه السلام- إجابة لطلب قومه بني إسرائيل {**أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ**}(16)، وتأمل قوله – تعالى-: َ(فانْبَجَسَتْ)، وما يوحي به جرس هذه الكلمة من إيقاع صوتي مؤثر، فـ(الباء والجيم والسين تفتُّح الشيء بالماء خاصة، قال الخليل: البَجَس انشقاق في قربة أو حجر أو أرض ينبع منها ماء، فإن لم ينبع فليس بانبجاس، وقال: الانبجاس عام والنَّبوع للعين خاصة، والسحاب يتبجس مطراً)(17).

والملفت للانتباه أن التعبير القرآني في هذه السورة جاء بكلمة (فانْبَجَسَتْ)، ومرة أخرى في سياق آخر بقوله: (فانفجرت)(18)، فما الفرق الدلالي بين هاتين المفردتين؟

يقول البغوي: (وأكثر أهل التفسير يقولون: انبجست وانفجرت واحد)، وقال أبو عمرو ابن العلاء: انبجست عرقت وانفجرت، أي: سالت، فذلك قوله تعالى: فانفجرت)، أي: فضرب، فانفجرت، أي: سالت)(19). ويقول ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز: (الانفجار) انصدع شيء عن شيء ومنه انفجر، والانبجاس في الماء أقل من الانفجار)(20). ويقول الألوسي: (والانفجار انصداع شيء من شيء، ومنه الفجر والفجور، وجاء هنا (انفجرت)، وفي الأعراف (انبجست)، فقيل: هما سواء، وقيل: بينهما فرق وهو أن الانبجاس أول خروج الماء، والانفجار اتساعه وكثرته، والانبجاس خروجه من الصلب، والآخر خروجه من اللين، والظاهر استعمالها بمعنى واحد)(21).

(15) سورة الأعراف، الآية: 160.

(16) ينظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي: : 478، مؤسسة الريان، بيروت، لبنان، 1418هـ-1997م.

(17) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون: 199/1، دار الجيل بيروت، بيروت، لبنان، 1411هـ-1991م.

(18) قال تعالى: (وإذا استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا). البقرة، الآية: 60.

(19) تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل، أبو محمد الحين بن مسعود، تحقيق: خالد عبد الرحمن ومروان سوار: 77/1:، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط4، 1415هـ-1995م.

(20) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبدالشافي:152/1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ-1993م.

(21) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين الألوسي: 271/1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط4، 1405 هـ، 1995م.

وأقول -والله أعلم بأسرار كتابه-: إن هناك فارقاً دلالياً في استعمال الكلمتين، فكلمة (الانفجار) مأخوذة من تفجيرك للماء، والمفجّرْ: الموضع يتفجر منه، وانفجر الماء والدم نحوهما من السيّال، وتفجّر وفجّر -شدّد للكثرة-، وانفجرت عليهم الدواهي: أتتهم من كل وجه كثيرة بغتة، وأفجر إذا عصى، وأفجر إذا كفر، والفجر: كثرة المال، وفجر إذا كذب وأصله الميل، والفاجر: المائل، وفجر الرجل بالمرأة يفجر فجوراً زنا)[22].

إذن من خلال المدلول اللغوي لكلمة (انفجر) تبيَّن أنها وباجتماع أصوات الحروف تعطي دلالة القوة والكثرة والشدة عكس كلمة (فانبجست)، فلكل لفظ قرآني إيحاءاته الدقيقة الخاصة به، قال الرازي في مفاتيح الغيب: (وقال آخرون: الانبجاس خروج الماء بقلة، والانفجار خروجه بكثرة، وطريق الجمع: أن الماء ابتدأ بالخروج قليلاً ثم صار كثيراً... انتهى)[23]. أي: أن الانبجاس ابتداء الانفجار والانفجار بعده غاية له)[24]، وعليه فإن اللفظ القرآني (انفجر) يغطي دلالة تدفق الماء من الحجر بشدة بينما يعبر اللفظ انبجس عن تدفق الماء وسيلانه بشكل هادئ، وهو اختلاف في التعبير بين المفردتين استدعاه المقام وتطلبه المعنى، قال أبو جعفر بن الزبير: (إن الواقع في الأعراف طلب بني إسرائيل من موسى -عليه السلام- السقيا، قال تعالى: **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ**، والوارد في البقرة طلب موسى -عليه السلام- من ربه، قال تعالى: ﴿**وإذ استسقى موسى لقومه**﴾، فطلبهم ابتداء فناسبه الابتداء، وطلب موسى-عليه السلام- غاية لطلبهم؛ لأنه واقع بعده ومرتب عليه، فناسب الابتداء والغاية الغاية، فقيل جواباً لطلبهم: (فانبجست)، وقيل: إجابة لطلبه (فانفجرت)، وتناسب ذلك وجاء على ما يجب)[25]، فكلمة (فانبجست) جاءت وحيدة صيغة ومادة في القرآن الكريم، مما يعطي لهذه المفردة القرآنية مكانة بلاغية لا يمكن لأي لفظة أخرى أن تسد مسدها فكل لفظ في القرآن لو أبدل مكان لفظ لارتبك التعبير، واضطرب ولخرج من باب البلاغة إلى باب الكلام المألوف.

---

(22) لسان العرب، مادة فجر:5/45-46.

(23) التفسير الكبير، الإمام الرازي: مج 33/8، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(24) قال الراغب في المفردات: (الانبجاس) أكثر ما يقال فيما يخرج من شيء ضيق، والانفجار يستعمل منه وفيما يخرج من شيء واسع. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني 47/1، مكتبة نزار مصطفى، السعودية 1418-1997.

(25) ملاك التأويل القاطع بدوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، أحمد بن إبراهيم بن الزبير، تحقيق: سعيد الفلاح: 212-213، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1983-1403هـ.

ومن ملائمة الألفاظ لمعانيها ما جاء في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾**.[26]

إذ امتنع بنو إسرائيل من قبول ما في التوراة فألزمهم الله –عز وجل– بالعمل، ونتق فوق رؤوسهم الجبل فصار فوقهم كأنه ظله[27]، يقول ابن كثير: (ثم سار بهم موسى –عليه السلام– إلى الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، وأمرهم بالذي أمره الله أن يبلغهم من الوظائف، فثقلت عليهم وأبوا أن يقروا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم كأنه ظلة)[28].

تأمل معي التعبير القرآني بالمفردة القرآنية (نتقنا) في سياق هذا الخطاب لمحمد –صلى الله عليه وسلم– لأخذ العبرة والعظة من قصة موسى –عليه السلام– مع بني إسرائيل في مخالفة قومه لأحكام دينهم، أي: (واذكر لهم يا محمد أيها النبي إذ رفعنا فوق جبل الطور، وأصبح كأنه سقيفة لما أبوا أن يقبلوا التوراة لثقلها، وعلموا وأيقنوا أنه ساقط عليهم؛ لأن الجبل لا يثبت في الجو)[29]، فهذه اللفظة القرآنية الواردة بصيغة الماضي (إذ نتقنا) الواقع في حيز الشرط، والمسند إلى ضمير العظمة وردت في القرآن وحيدة صيغة ومادة، وما ذلك إلا لتناسب اللفظ مع المعنى، و(النتق) النون والتاء والقاف أصل يدل على جذب شيء وزعزعته وقلعه من أصله، تقول العرب: نتقت العرب من البئر: جذبته، والبعير إذا تزعزع حِملُه نتق عُرى حباله، وذلك جَذْبُه إياها فتسترخي، وامرأة ناتق: كثر أولادها، وهذا قياس الباب كأنهم نتقوا منها نتقاً)[30]، وفي لسان العرب: (ونتقت الشيء إذا حركته حتى يسفك ما فيه)[31]، ويقول الراغب في المفردات: (ومنه استعير امرأة ناتق إذا كثر ولدها، وقيل: زند ناتق أي: وارٍ، تشبيهًا بالمرأة الناتق)[32]، ومن الدلالة اللغوية لهذه الكلمة نجد الإيحاء بمعنى الجذب والنزع بقوة.

والتحليل الصوتي لهذه الكلمة يتطلب النظر إلى ثلاثة أمور، هي:–

(26) سورة الأعراف، الآية: 171.

(27) ينظر تفسير السعدي:171.

(28) المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير:510، دار السلام، الرياض، 1420–1990م.

(29) التفسير المنير:152/9.

(30) معجم مقاييس اللغة 387/5.

(31) لسان العرب،مادة: نتق:351/10.

(32) المفردات في غريب القرآن:654/2

قوة الله – سبحانه وتعالى وكمال قدرته، وضخامة الجبل وقوته، وسرعة الجذب، فالأصوات المكونة للكلمة، هي: النون والتاء والقاف) (النون صوت سهل وبسيط تبدأ به الكلمة وتنتهي؛ باعتباره ضمير الفاعل؛ ليدل على الإحاطة الكاملة وقدرة الله سبحانه وتعالى، وسهولة حدث الفعل عليه، ويأتي صوت التاء (الانفجاري المهموس)؛ ليدل على سرعة تنفيذ الحدث، كما أن صوت (التاء) لا يستغرق زمناً نطقياً، ثم يأتي أخيراً صوت القاف (الانفجاري المفخم)؛ ليؤكد قوة الله وقدرته وقوة الجبل لكنه لا يستعصي على قدرته سبحانه وتعالى)[33].

فتدبَّر تلك الملائمة بين أصوات هذه الكلمة وما تثيره من دلالة إيحائية على المعنى، فكانت عنصراً إبداعياً تصويرياً مهماً. يقول ابن عاشور: وهذه آية أظهرها الله لهم تخويفاً؛ لتكون مذكرة لهم[34]. إنه خطاب ربَّاني يحمل روحاً وإعجازاً وقدسية نص يتعبّد به.

ومن الألفاظ الأحادية الواردة في النظم الحكيم ما جاء في سورة يوسف –عليه السلام–: **﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾**[35].

يقول الشوكاني في تفسير هذه الآية: (لما أجمع الإخوة رأيهم على أن يلقوه في غيابات الجب جاؤوا إلى أبيهم وخاطبوه بلفظ الأبوة؛ استعطافاً له وتحريكاً للحنو الذي جبلت عليه طبائع الآباء للأبناء، وتوسلاً بذلك إلى تمام ما يريدونه من الكيد الذي دبروه)[36].

التعبير باللفظة القرآنية (يرتع) التي جاءت في سياق خطاب الأبناء لأبيهم يسترعي الانتباه، فقد ناسبت هذه اللفظة سياق المعنى الذي جاءت من أجله، فهي وحيدة في القرآن صيغة ومادة، فإخوة يوسف –عليه السلام– يحملون الحقد عليه ظناً منهم أن أباهم يؤثره عليهم، يقول القرطبي: (ويْرتع بإسكان العين إلا أنه ليوسف عليه السلام)[37]، فهذه المفردة القرآنية (يرتع) تلقى إشعاعاً خاصاً من حيث لا يسدّ غيرها هذا المكان، وتنفرد بمكانها من حيث ملائمة أقصى التأثير، فإذا قرأناها في الآيات وجدنا أنها تتجاوز كل تعابيرنا، متمكنة من موضعها بمنزلة اللبنة المطلوبة للبناء

(33) مجلة الدراسات العربية (التعبيرية الصوتية في النص القرآني) ، عبد المنعم سيد، العدد19 مج2 (2009)، جامعة المنيا، مصر: 595.

(34) قيم التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: 164/9.

(35) سورة يوسف، الآية: 12.

(36) فتح القدير: 12/3.

(37) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: مج93/5، دار الكتب العلمية، بيروت، ط5، 1417هـ- 1996م.

الكلي، فـ(الرتع): الراء والتاء والعين كلمة واحدة، وهي تدل على الاتساع في المأكل، ويقول: رتع يرتع إذا أكل ما شاء، والمراتع: مواضع الرّتعة، وهذه المنزلة يستقر فيها الإنسان)[38]، و(الرتع) الأكل والشرب رغداً في الريف، يقال: خرجنا نَرْتَع ونلعب أي: ننعم ونلهو، ورتع فلان في مال فلان: تقلب فيه أكلاً وشرباً، وقوم مَرْتعون: راتعون إذا كانوا مخاصيب)[39].

إذن: هذه الكلمة بجرسها الإيقاعي تعطي إيحاء بالسعة، والشعور بالأنس والسعادة، وهذا ما أراد إخوة يوسف –عليه السلام– إثباته لوالدهم، ففي كل مرة لا يسمح الأب بذهاب ابنه يوسف –عليه السلام– معهم؛ لعدم ثقته بهم **﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾**[40]. فما كان منهم بعد تفكير إلا أن قالوا: **﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** يقول الراغب: (الرتع أصله أكل البهائم، ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل كثيراً).[41]

ويقول ابن عاشور: (ارتعى هو افتعال من الرعي للمبالغة فيه، فهو حقيقة في أكل المواشي والبهائم، واستعير في كلامهم للأكل الكثير؛ لأن الناس إذا خرجوا إلى الرياض والأرياف للعب والسبق تقوى شهوة الأكل فيهم فيأكلون أكلاً ذريعاً، فلذلك شبه أكلهم بأكل الأنعام، وإنما ذكروا ذلك؛ لأنه يسرُّ أباهم أن يكونوا فرحين. ورتع إذا أقام في خصب وسعة من الطعام، والتحقيق أن هذا مستعار من رتعت الدابة إذا أكلت في المرعي حتى شبعت)[42]، فلهذه الاستعارة التصريحية في هذه اللفظة القرآنية أبعادها الجمالية في سياق هذا الخطاب في إقناع الأب بخروج الابن، فإنه (لما تقرر في أذهانهم التفريق بين يوسف وأبيه أعملوا الحيلة على يعقوب وتلطفوا في إخراجه معهم، وذكروا نصحهم له، وما في إرساله معهم من انشراح صدره بالارتعاء واللعب؛ إذ هو مما يشرح الصبيان ويفرحهم)[43].

---

(38) معجم مقاييس اللغة: 2/ 486.

(39) لسان العرب: 113/8.

(40) سورة يوسف، آية: 11.

(41) المفردات: 249/1.

(42) التحرير والتنوير:228/12

(43) تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف أبو حيان لأندلسي، تحقيق: عادل عب الموجود، على محمد معوض: 285/5. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ–1993م.

وعندما يذاع ما كان من امرأة العزيز مع يوسف –عليه السلام– وتتناقله نسوة المدينة باللوم والشماتة يرصد لنا النظم الحكيم هذا الحوار الفريد من نوعه، البليغ في نظمه وعبارات: ﴿**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا**﴾(44).

تأمل وتدبر قوله: ﴿**قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا**﴾ وما يوحي به ظلال هذا التعبير القرآني، فـ (الشين والغين والفاء كلمة واحدة، والشغاف وهو غلاف القلب)(45)، و(جلده دونه كالحجاب وسويداؤه)(46). أي: (أوصل الحب إلى شغاف قلبها)(47). (وقرأ ابن عباس قد شغفها حباً، قال: دخل حبه تحت الشغاف)(48)، فما أروع هذا التعبير القرآني! فكان حب هذا الفتى قد مزّق حجاب قلبها ووصل إلى سويداء فؤادها، أو أن حبَّه أحاط بقلبها مثل إحاطة الشغاف بالقلب فاشتعل بحبه، وصار حجابًا بينه وبين كل ما سوى هذه المحبة، فلا تعقل صاحبة هذا القلب سواه ولا يخطر ببالها غيره، قال النابغة الذبياني:

وقـــد حـــال هـــم دون ذلـــك شـــاغل   مكـــان الشـــغاف تبتغيـــه الأصـــابع(49)

1

فهذه الصورة التعبيرية في احتراق الشغاف للقلب (كناية عن صفة التمكين)(50).

قال ابن القيم –رحمه الله– : (إنهن جمعن لها في هذا الكلام واللوم بين العشق الفرط والطلب المفرط، فلم تقتصد في حبها ولا في طلبها، أما العشق فقولهن: (قد شغفها حباً)، أي: وصل حبه إلى الشغاف قلبها، وأما الطلب المفرط فقولهن: (تراود فتاها)، والمراودة الطلب مرة بعد مرة، فنسبوها إلى شدة العشق، وشدة الحرص على الفاحشة)(51).

فهذه اللفظة القرآنية شغفها في غاية الروعة التعبيرية الجمالية.

---

(44) سورة يوسف، الآية: 30 .

(45) معجم مقاييس اللغة: 195/3.

(46) لسان العرب: 179/9.

(47) معجم مقاييس اللغة: 195/3.

(48) لسان العرب، مادة شغف: 179/9.

(49) ديوان النابغة، تحقيق: عباس عبد الستار: 53، ط3، دار الكتب العلمية، هـ-1996م.

(50) التحرير والتنوير:260/12.

(51) التفسير القيم، الإمام ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفيفي: : 315، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

وحين يأبى سيدنا يوسف –عليه السلام– أن يغادر السجن إلا بعد أن تعلن على الناس براءته، وعاد رسول الملك من عند يوسف يطلب منه سؤال النسوة اللائي قطعن أيديهن فحصل الاعتراف من نسوة المدينة بطهارة يوسف وعفته وبعده عن السوء، ثم يأخذ الحق يعلن عن نفسه، فتعلن امرأة العزيز في خطابها الصريح أمام الملك ولأول مرة شهادة الحق التي تغني عن كل شهادة ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ .

تأمل معنى –كلمة – (حصحص)! فلماذا عدل النظم الحكيم عن التعبير القرآنية بكلمة (وضح الحق)؟ وما الذي تحمله هذه المفردة القرآنية من إيحاءات لا تكون في أي لفظة أخرى؟!

هذه اللفظة عدها ابن أبي الإصبع من الفرائد القرآنية، فقال في باب الفرائد: (هو باب مختص بالفصاحة دون البلاغة؛ لأنه الإتيان بلفظة تتنزل منزلة الفريد من العقد، وهي الجوهرة التي لا نظير لها، تدل على عظم فصاحة هذا الكلام وقوة عارضته، وجزالة منطقه، وأصالة عربيته، لو أسقطت من الكلام عزت على الفصحاء، ومنها قوله تعالى: ﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾([52]

يقول الراغب: حصحص الحق، أي: (وضح وذلك بانكشاف ما يقهر)([53]، ويقول ابن منظور: (الحصحصة: الحركة في الشيء حتى يستقر فيه ويتمكن منه، ويثبت، وقيل: تحريك الشيء في الشيء حتى يتمكن ويستقر فيه، وكذلك البعير إذا أثبت ركبتيه للنهوض بالثقل، ويقال:حصحصت التراب وغيره إذا حركته فحصته يميناً وشمالاً، والحصحصة بيان الحق بعد كتمانه)([54].

إذن: المدلول اللغوي لهذه المفردة يوحي باستقرار الشيء وثباته وتمكنه ووضوحه بعد كتمانه. فهذا التكرار الصوتي في الكلمة يحاكي تكرار حدث الفعل، فالتكرار فيها يعنى الثبات والظهور، والملاحظ أنها تحتوي على صوت واحد يتسم بالوضوح السمعي وهو الصاد، لتوضيح قوة ظهور الحق ووضوحه. وقد عد البلاغيون ذلك الفعل من الشواهد على التناسب بين إيحاء الصوت والدلالة المقصودة للكلمة، يقول ابن عاشور: (أي: ثبت واستقر الحق، والحق هو براءة يوسف –عليه السلام– مما رمته امرأة العزيز، وإنما ثبت حينئذ؛ لأنه كان محل قيل وقال وشك، فزال ذلك باعترافها بما وقع، والتعبير بالماضي (حصحص) مع أنه لم يثبت إلا أنه من إقرارها الذي لم يسبق؛ لأنه قريب الوقوع، فهو لتقريب

([52]) بديع القرآن، ابن أبي الأصبع المصري، تحقيق: حنفي محمد شرف، نهضة مصر: 287.

([53]) المفردات:157/1.

([54]) لسان العرب:15/7-16.

زمن الحال زمن الحال من المضي)[55]، (فإذا اعترف الخصم بأنه صاحبه على الحق، وهو على الباطل لم يبق لا حد مقال)[56]، ولن يكون هناك مجالٌ للإنكار، ولا سبيلٌ إلى تغيير الحقائق مهما كان ومهما صار، (فكان ذلك لطفًا من الله بيوسف –عليه السلام[57]– وانتصارًا له من ظلم سيدة القصر ونسوة المدينة.

ومن المفردات القرآنية الأثيرة في جرسها وإيقاعها ما جاء في قوله تعالى: **﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ ﴾**[58]

هذه الآية الكريمة جاءت في سياق خطاب المنكرين المستبعدين للبعث بعد الموت وموقفهم من هذه الحقيقة **﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾** فـ(النغض) النون والغين والضاد أصل صحيح يدل على هز وتحريك، والانغاض: تحريك الإنسان رأسه نحو صاحبه كالمتعجب منه)[59]، وقال الفراء: (انغض رأسه إذا حركه إلى فوق وإلى أسفل، وإنما سمي الظلم: نغضاً ونغضاً؛ لأنه إذا عجّل في مشيته ارتفع وانخفض)[60]، وقال الزمخشري: (أي: فستحركونها نحوك تعجباً واستهزاء)[61]، فجاءت كلمة (فسيغضون) متوافقة مع سياق المعنى، فالآية الكريمة وردت في خطاب الكافرين المنكرتين المستبعدين لوقوع المعاد والبعث بعد الموت فهم مع إنكارهم وتعجبهم من هذه الحقيقة نجدهم يجسدون أبلغ صور الاستبعاد من خلال حركة الجسد التي يقومون بها؛ سخرية وتعجباً، فهذا التعبير التصويري **﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾** كناية عن التكبر والاستهزاء؛ إذ الانغاض هو تحريك الرأس علوًا وسفلًا، وقد صوَّر هذا العقل حالهم أبرع تصوير، ولولا ذكره لاحتمل استفهامهم (متى هو) أن يكون حقيقاً بريئاً.

وفي سياق خطاب الله تعالى مع موسى –عليه السلام– في سورة طه، يقول تعالى: **﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قال هي عصاي أتوكأ بها وأهش بها على غنمي (18)﴾**[62]. جاءت هذه الآية: **﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا**

---

(55) التحرير والتنوير: 291/12.

(56) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود عمرو الزمخشري: 478/2، دار الكتب العربية.

(57) الجامع للقرطبي: مج 5/ج9-136

(58) سورة الإسراء، الآية: 51.

(59) معجم مقاييس اللغة: 453/5-454.

(60) لسان العرب: 239/7.

(61) الكشاف: 2/ 672.

(62) سورة طه، الآيتان: 17-18.

مُوسَى﴾ مدخلاً لعرض حديث الله مع موسى -عليه السلام- وقد تصدرت الآية بأداة استفهام الصادرة من الله -عز وجل- الذي لزم أن يكون مجازياً له دلالة بلاغية. وللإمام الزمخشري كلام نفيس في الإبانة عن المعنى المجازي للاستفهام حين قال: (سأله ربه ليريه عظم ما يخترعه -عز وجل- في الخشبة اليابسة من قلبها حيه نضناضة، ليقرر في نفسه المباينة البعيدة بين المقلوب عنه- أي: العصا- والمقلوب إليه -أي: الحية- وينبهه على قدرته الباهرة)(63). وهذا معناه أن الاستفهام الوارد في هذه الآية هو استفهام تقريري، الغرض منه تقرير موسى -عليه السلام-بإمكانيات الشيء الذي يمسكه بيده اليمنى، ثم تأمّل الجواب في سياق هذا الخطاب: **﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾**.

الملفت للانتباه العطف بذلك الفعل (وأهش)، فما دلالته؟ وماذا تضفي هذه المفردة القرآنية من دلالة إيحائية لا يمكن لأي لفظة أن تفي بالمعنى نفسه؟ الهش: (الهاء والشين أصل صحيح يدل على رخاوة ولين)(64)، و(أهش هشاً إذا خبط الشجرة فألقاه لغنمه)، فهذه المفردة القرآنية الوحيدة -صيغة ومادة- كان لها إيحاء دلالي ذو أثّر على المعنى، (فالمكونات الصوتية للكلمة تصوُّر وتحاكي المعنى فعلاً، فالهمزة صوت توتر حنجري يصوِّر عملية رفع العصي، ليضرب أوراق الشجر، وتكرار هذه العملية التي هي حدث الفعل، وهو حين يفعل هذا يسقط الجاف من ورق الشجر، وهذا ما يصوّره صوت الهاء والشين؛ لما في هذا الورق من هشاشة وأصوات لاحتكاك الورق ببغضه البعض، كما أن الشين يعكس صورة انتشار ورق الشجر الجاف على الأرض لما فيه من تفشٍّ)(65).

وفي نعيم الجنة والتلذذ بها من قبل أصحابها، يقول تعالى:**﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾**(66).

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآيات: (لما ذكر -تعالى- أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسله، وهم الذين سبقت لهم من السعادة، وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا أحسن الله مآبهم وثوابهم ونجّاهم من العذاب وحصل لهم جزيل الثواب، فقال: **﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (101) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا**

---

(63) الكشاف: 57/3

(64) معجم مقاييس اللغة: 6/ 9.

(65) مجلة الدراسات العربية (التعبيرية الصوتية في النص القرآني): 599 .

(66) سورة الأنبياء، الآية: 102.

(103)﴾(حريقها في الأجساد)(67). فتأمل معي -أيها القارئ- التعبير بكلمة (حسيسها) وما توحي به جرس حروفها من إيحاءات تستشعر من خلاله بعظيم النعم في أن الصوت الخفي من النار لا يسمع ولا يصل إليهم، (فقد عبَّر عن الحركة بالحسيس)(68) و(الحس والحسيس: الصوت الخفي، والحسّ بكسر الحاء، وحسّاً وحسيساً وأحس به شعر به)(69)، فالله -عز وجل- ينفي عن المؤمنين المنعمين سماعهم لكل ما يكدر نعيمهم فلا تبلغ أسماعهم أصوات النار سالمون من كل ما يفزعهم. فجملة (لا يسمعون حسيسها) (بيان لمعنى (مبعدون)، أي: مبعدون عنها بعدًا شديدًا بحيث لا يلفحهم حرها، ولا يروعهم منظرها، ولا يسمعون صوتها، والصوت يبلغ إلى السمع من أبعد ما يبلغ من المرئي، فهم سالمون من الفزع من أصواتها، فلا يقرع أسماعهم ما يؤلمهم)(70). يقول سيد قطب -صاحب الظلال-:-(ولفظة (حسيسها) من الألفاظ المصوّرة بجرسها لمعناها، فهي تنقل صوت النار وهي تسري وتحرق، وتحدث ذلك الصوت المفزع، وإنه لصوت يتفزع له الجلد ويقشعر، ولذلك نجي الذين سبقت لهم الحسنى من سماعه فضلًا على معاناته— نجوا من الفزع الأكبر الذي يذهل المشركين وعاشوا فيما تشتهي أنفسهم من أمن ونعيم)(71).

ويقابل أهل النعيم، وعظيم نعيمهم أهل النار وبشاعة عقابهم، يقول تعالى: ﴿**وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94)**﴾(72).

هذه الآيات خطاب من الله -تعالى- لأهل النار قبل دخولهم النار، والإمام الزمخشري فسر هذين الاستفهامين بما يفهم من كلامه، أنها للتحسر والتعميم، قال: (يجمع عليهم الغموم والحسرات كلها، فتُجعِل النار بمرأى منهم فيهلكون غماً في كل لحظة ويوبخون على إشراكهم، فيقال لهم: أين آلهتكم؟ هل ينفعونكم بنصرتهم لكم أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم؟)(73). واختصر الإمام أبو السعود بيان المراد منهما، فقال: (وهذا سؤال تقريع وتبكيت

(67) تفسير ابن كثير: 878.

(68) مفردات القرآن:152/1.

(69) لسان العرب: 49/6.

(70) التحرير والتنوير: 17-156.

(71) في ظلال القرآن: 2399/4.

(72) سورة الشعراء، الآيات: من (92) إلى (94).

(73) الكشاف /321/3- 322.

لا يتوقع له الجواب)[74]. أما الطاهر بن عاشور فخلاصة رأيه أن الاستفهام الأول للتهكم والتوبيخ والثاني للإنكار والتهكم)[75]، ثم تأمل بعد ذلك حين يصور النظم الحكيم كيفية دخول الكفار النار ﴿**فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ**﴾.

فهذه اللفظة بجرسها الايقاعي (فَكُبْكِبُوا) يقف فيها المتأمل أمام صورة تعبيرية إيحائية لا تملكها الكلمات العادية، فـ(الكاف والباء) أصل صحيح يدل على جمع وتجمع، لا يشد منه شيء، ومنه كببت الشيء لوجهه اكبُّه كباً، وأكب فلان على الأمر يفعله. والكبكبة: أن يتدهور الشيء إذا أُلقِي في هوة حتى يستقر، فكأنه تردد في الكبَ ، ويقال: جاء متكبكاً في ثيابه، أي: متزملاً ومن ذلك الكبة من الغزل)[76]، فهذه اللفظة بهذا السياق الواردة فيه (كبكبوا) أبلغ من الفعل (كبوا)؛ لما تعطيه المفردة القرآنية من الكب العنيف وشدة العقاب. وجدير بنا أن نقف عند كلام الزمخشري بشأن جمالية هذه الكلمة؛ إذ يقول: (الكبكبة تكرير الكب، جعل التكرير في اللفظ دليلًا على التكرير في المعنى كأنه إذا أُلقِي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها)[77]، وبهذا المعنى تبعد الكلمة عن كونها إشارة اعتباطية (فإن انضمام الشفتين ثلاث مرات في هذه المفردة مره على الكاف لوجود الضم، ومرتين على الباء؛ لأنه حرف شفوي شديد، وهذا الانضمام يصور حركة تكوير الكافر، وهو يتدحرج حتى يصل إلى القعر، ويتجمع جسده كالكرة وكما تتجمع الشفاه في لفظ هذه المفردة)[78]، ويقول سيد قطب: (وإننا لنكاد نسمع من جرس اللفظ صوت تدفعهم وتكفئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام وصوت الكركبة الناشئ من الكبكبة، كما ينهار الجرف فتتبعه الحروف. فهو لفظ مصور بجرسه لمعناه، وإنهم لغاوون ضالون، وقد كبكب معهم جميع الغاوون هم (وجنود إبليس أجمعون) والجميع جنود إبليس هو تعميم شامل بعد تخصيص)[79]، فهو تصوير دقيق لحركة سقوطهم في النار، فهذه الكبكبة الجماعية أدل على الإهانة وأكثر ملاءمة للمعنى المراد.

---

(74) تفسير أبي السعود المسمى إرسال العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد بن محمد العمادي: 251/6، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1411هـ- 1990م.

(75) ينظر: التحرير والتنوير: 19-151.

(76) معجم مقاييس اللغة: 124/5.

(77) الكشاف: 322/3.

(78) جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، أحمد باسوف: 161، دار المكتبي، دمشق، ط1: 1415-1994م.

(79) في ظلال القرآن: 2605/5.

ومن الألفاظ المفردة في القرآن صيغة ومادة كلمة (ضيزى) الواردة في خطاب المشركين **﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى (21) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى (22)﴾**.(80)

[81]يقول الدكتور المطعني بشأن الخطاب في هذه الآيات الواردة على صورة الاستفهام: (إن الاستفهام الأول (**أفرأيتم**) المراد منه استحضار صورة المستفهم عنه في الذهن ليحكم عليه وهو حاضر ماثل فيه. أما الاستفهام الثاني {**أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى**}(81) فهو الإنكار مع التقريع والتوبيخ) (82)، أي: (أتجعلون لله البنات بزعمكم ولكم البنون؟ (**تلك إذًا قسمة ضيزى**)، أي: ظالمه جائرة، وأي ظلم أعظم من قسمة تقتضى تفضيل العبد لمخلوق على الخالق) (83)، فموقع جمله {تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى} تعليل للإنكار والتهكم المفاد من الاستفهام (ألكم الذكر وله الأنثى) أي: قد جرتم في القسمة، وما عدلتم فأنتم أحقاد بالإنكار)(84)، فهذه الفاصلة القرآنية (ضيزى) جاءت متوافقة مع المعنى المراد فـ(ضيز في الحكم، أي: جار، وضازه حقه: يضيزه ضيزاً نقصه وبخسه ومنعه، وضِيزت فلان أضزه وضيزاً: جُرتُ عليه وقسمة ضيزى أي جائرة)(85)، وقد عدَّ ابن الأثير هذه المفردة من الألفاظ الغريبة التي حسنت بحسن موقعها؛ (لأنها جاءت على الحرف المسجوع الذي جاءت السورة جميعها عليه، وغيرها لا يسد مسدها في مكانها، وإذا نزلنا معك أيها المعاند على ما تزيد قلنا: إن غير هذه اللفظة أحسن منها ولكنها في هذا الموضع لا ترد ملائمة لأخواتها ولا مناسبة؛ لأنها تكون خارجة عن حرف السورة، وسأبين فأقول: إذا جئنا بلفظة في معنى هذه اللفظة قلنا: ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ظالمة. لم يكن النظم كالنظم الأول، وصار الكلام كالشيء المعوز الذي يحتاج إلى تمام، وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام). (86)

ونجد الرافعي نظر إلى هذه المفردة نظرة عميقة شاملة تناولتها من جميع جهاتها وغاص في أعماقها في قوله: (وفي القرآن لفظة غريبة هي أغرب ما فيه، وما حسنت في كلام قط إلا في موقعها منه، وهي كلمة (ضيزى) من قوله

(80) سورة النجم، الآيات من (19) إلى (22).

[81] سورة النجم الآية (21).

(82) التفسير البلاغي للاستفهام: 17/4

(83) تفسير السعدي: 1388

(84) التحرير والتنوير: 27-102

(85) لسان العرب: 5/367-368.

(86) المثل الثائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد: :16/1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1411هـ-1990م.

تعالى: ﴿تلك إذا قسمة (ضيزى)، ومع ذلك فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه. ولو أدرنا اللغة عليها ما صلح لهذا الوضع غيرها، فإن السورة التي هي منها سورة النجم مفصلة كلها على الياء، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل، ثم هي في معرض الإنكار على العرب؛ إذ وردت في ذكر الأصنام وزعمهم في قسمة الأولاد، فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات الله مع أولادهم البنات، فقال تعالى: ﴿**ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذًا قسم ضيزى**﴾، فكانت غرابة اللفظ أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة التي أنكرها. وكانت الجملة كلها كأنها تصوّر في هيئة النطق بها الإنكار في المرة الأولى والتهكم في الأخرى، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكَّنت في موضعها من الفصل، ووضعت حالة المتهكم في إنكاره من إمالة اليد والرأس بهذا المدين فيها إلى الأسفل والأعلى، وجمعت إلى كل ذلك غرابة الإنكار بغرابتها اللفظية، والعرب يعرفون هذا الضرب من الكلام، وله نظائر في لغتهم، وكم من لفظة غريبة عندهم لا تحسن إلا في موضعها ولا يكون حسنها على غرابتها إلا أنها تؤكد المعنى الذي سيقت له بلفظها وهيئة منطقها، فكانت في تأليف حروفها معنى حسيًّا وفي تأليف أصواتها معنى مثله في النفس، وإن تعجب فعجب نظم هذه الكلمة الغريبة وائتلافه على ما قبلها؛ إذ هي مقطعان: أحدهما مد ثقيل والآخر مد خفيف، وقد جاءت عقب غنتين في (إذن) و(قسمة)، إحداهما خفيفة والأخرى ثقيلة متفشية، فكأنها بذلك ليست إلا مجاورة صوتية لتقطيع موسيقى، وهذا معنى رابع. أما خامس هذه الكلمات فهو أن الكلمة التي جمعت المعاني الأربعة على غرابتها إنما هي أربعة أحرف أيضاً(87)، ففي هذه الكلمة تصوير لبشاعة ما يحكمون به.

الخاتمة:

وفي الختام، فكل لفظ في النص القرآني قد وضع في موضعه المناسب تمامًا كما أراد الله -تعالى- وهذا الترتيب في ذاته سر إعجازي فوق بقية الأسرار، فالقرآن (يتأنَّق أسلوبه في اختيار ألفاظه، ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة في دلالتها، يستخدم كلًّا حيث يؤدي معناها في دقة فائقة تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها،

(87) بلاغة القرآن في أدب الرافعي، د. فتحي عبد القادر فريد: 222، دار المنار.

وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وفت به أختها، فكل لفظة وضعت لتؤدي نصيبها من المعنى بأقوى أداء، لذلك لا تجد في القرآن ترادفًا، بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنى جديدًا).(88)

فهرس المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

1. الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ ((دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن)، د. محمد الأمين الخضري، الطبعة الأولى، 1413هـ- 1993م.
2. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الفكر العربي، بيروت، الطبعة التاسعة، 1393هـ-1937م.
3. بديع القرآن، ابن أبي الأصبع المصري، تحقيق: حنفي محمد شريف، نهضة مصر.
4. التحرير والتنوير، الشيخ محمد طاهر بن عاشور، الطبعة الأولى، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
5. تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود محمد ابن محمد العمادي، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1413هـ-1990م.
6. تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق: عادل أحمد وعلي معوض، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1413هـ-1993م.
7. تفسير البغوي المسمى معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، تحقيق: خالد عبد الرحمن، مروان سوار، الطبعة الرابعة، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1415هـ-1995م.
8. التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم، د. عبد العظيم المطعني، الطبعة الأولى، مكتبة وهبة، القاهرة،1420-1999م.
9. التفسير القيم لابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
10. التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية والطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1421 هـ -2000م.

(88) من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي: 57، دار النهضة، الفجالة، القاهرة.

11. تفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د وهبة الزحيلي، الطبعة الأولى، دار الفكر، بيروت، دمشق 1411 هـ - 1991م.
12. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الريان، بيروت، لبنان، 1417هـ-1996م.
13. الجامع للأحكام القرآن الكريم، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1417هـ-1996م.
14. جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، أحمد ياسوف، دار المكتبي، سورية، دمشق، الطبعة الأولى، 1415هـ-1994م.
15. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد على النجار، الطبعة الثانية .
16. دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة، د. سعيد حسن بحيري، القاهرة، مكتبة الأدب، 1994م.
17. دلائل الإعجاز في علم المعاني، تصحيح وتعليق: محمد رشيد رضا، بيروت، دار المعرفة، 1982م.
18. ديوان النابغة، تحقيق: عباس عبد الستار، ط3، دار الكتب العلمية، هـ-1996م..
19. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، 1405هـ-1985م.
20. سنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدامي، نشرته دار إحياء السنة النبوية.
21. فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1416هـ-1996م.
22. فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، د. فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف، الإسكندرية، 1988م.
23. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، 1408هـ -1988م.
24. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجه التأمل، محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، وطبعة دار المعرفة.
25. لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1410هـ -1990م.

26. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير الموصلي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1411 هـ-1986م.

27. مجمل اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: زهير عبد المحسن، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1406هـ-1986م.

28. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1413هـ-1993م.

29. المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير، دار السلام، الطبعة الأولى، 1420هـ - 1990م.

30. معترك الأقران في إعجاز القرآن، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العملية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1408-1988م.

31. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، 1411هـ -1991م.

32. معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون دار الجيل، بيروت، لبنان، 1411هـ- 1991م.

33. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم حسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، الطبعة الأولى، 1418هـ-1997م.

34. ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي التنزيل، أحمد بن إبراهيم بن الزبيد الغرناطي، تحقيق: سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1403هـ- 1983م.

35. من بلاغة القرآن، أحمد أحمد بدوي، دراسة النهضة مصر، الفجالة، القاهرة.

-المجلات

- مجلة الدراسات العربية (التعبيرية الصوتي في النص القرآني)، د. عبد المنعم سيد، العدد (19)، مج 2، (2009)، جامعة المنيا -، مصر ..

- مجلة الرافد الاماراتية الإماراتية، الشارقة، التشكيل مصطلحاً أدبياً، د. محمد صابر عبيد، العدد: 156 ، 2010م.